الفصل الثانى

إنها الليلة الأخيرة
فـى
وادى الراحة..!

بقلم
أنيس منصور

إذا كان اللواء محمد نبوى إسماعيل نائب رئيس الوزراء ووزير الداخلية فى أيام حكم الرئيس الراحل محمد أنور السادات يعتبر «شاهد أول» بحكم المنصب..فإن الكاتب الصحفى الكبير أنيس منصور رحمه الله يعتبر هو الآخر «شاهد عيان أول» أيضا بحكم الموقع ومن المؤكد أن الذين عاشوا وعايشوا هذه الفترة ولهم «دراية ما» بالذى حدث فى كواليس السياسة المصرية يعرفون أن موقع أنيس منصور لدى رأس القيادة السياسية – وأنا هنا أقصد الزعيم الراحل أنور السادات – كان مشابها تماما لموقع الكاتب الصحفى محمد حسنين هيكل لدى جمال عبد الناصر.. مع اختلاف الأدوار..

كان أنيس منصور أحد المقربين القلائل للزعيم أنور السادات إلى موقعه قريب جدا من الزعيم.. وكان أنيس منصور يلتقى بالسادات يوما كل أسبوع على الأقل.. هذا اللقاء كان شبه مقدس.. وقد كتب أنيس منصور عقب حادث المنصة مقالا اعتبره مدخلا مهما أيضا لاستجلاء الحقيقة..

وهذا هو مقال الكاتب الصحفى الكبير أنيس منصور الذى نشر «بمجلة أكتوبر» عندما كان رئيسا لتحريرها وعقب حادث المنصة وهو يعتبر مدخلا مهما أيضا لاستجلاء الواقع.

كان ذلك فى رمضان بالإسكندرية.. وقد لاحظت أن الرئيس السادات أسرف كثيرا فى استخدام عبارة: إذا أعطانا الله عمرا فسوف أفعل كذا وكذا العام القادم ..

قلت له: سيادة الرئيس كأنك شيخ فى التسعين.. سوف يعطيك الله عمرا إن شاء الله.. عمرا تعيش به وعمرا تعيش به مصر أيضا..

وكأننى لم أقل كلاما له معنى فكان يهز رأسه ويضحك قائلا: إن الأعمار بيد الله..

لم يكن يقولها استسلاما إنما يقولها أملا فى الله أن يطيل عمره.. وفى نهاية الحديث معه قال: سوف نلتقى فى وادى الراحة ليلة القدر..

فشكرته على هذه الدعوة الكريمة.. وقلت مداعبا: إذن فلن تكون راحة فى وادى الراحة!

فقال: إياك تقلقنى وإلاوضعتك فى السجن..وإذا لم يكن هناك سجن فسوف أطلق عليك الرصاص وأستريح.. وإذا لم يتيسر السلاح هناك فسوف أتركك وحدك فتظل تائها كاليهود أربعين عاما..

وأمام الرئيس وزملائى من محررى مجلة أكتوبر فى ميت أبو الكوم قلت: إن للرئيس تهديدات عنيفة يداعب بها ولا يقصد معناها.. فالرئيس السادات عندما قرأ المقال الذى فى «الأخبار» وفصلنى بسببه الرئيس جمال عبد الناصر.. قال: ما كان يجب أن يكتفى بفصلك.. كان لابد يشنقك!

وعلقت على ذلك أمامه وأمام زملائى : يا سيادة الرئيس إنك تحيرنى.. فأنت الرجل الذى لا يفصل أحدا من عمله تطالب بشنقى بينما الرجل الذى يشنق الناس قد اكتفى بفصلى..!

وفى إحدى المرات وفى حضور د. عائشة راتب قال لى : سوف أضعك فى السجن.. فقلت مداعبا : يا سيادة الرئيس هل نسيت أننا فى عصر أنور السادات؟ فقال : أعرف. ولكن هل نسيت أننى خريج سجون وأستطيع أن أضع فى جيبك قطعة من الحشيش؟

وتلفت إلى د.عائشة راتب ولم أعرف ما الذى يقال. وضحكنا جميعا.

وكان الحديث مع الرئيس السادات متعة . فكان لطيفا رقيقا مجاملا. وكان إذا تحدث :

تحمس واندمج فى الحديث.فيتحول إلى خطيب.. وفى أثناء الحديث يقول لقد قلت لكم من قبل.. وقد أجبت عن أسئلتكم من لحظات..!

ولم يكن أحد معى.. ولكنه اعتاد أن يتحدث إلى الملايين حتى لو كان الذى يحدثه شخصا واحدا..فعينه لاتغيب عن النظر إلى الميكرفون والكاميرا..وعن ملايين القراء..

وكثيرا ما جاءت السيدة جيهان السادات ترجوه أن يتوقف عن العمل والتفكير الذى طال، وتعرض عليه القليل من الطعام لعله يستريح. ولكنه كان يرفض إلا أن يكمل كلامه.وإلا أن ينتهى تماما من الذى يريد أن يقوله : فهذه هى راحته وهذه هى متعته..

وفـى ذلك اليوم من شـهر رمضان نبهنى الرئيس السـادات إلى أن أعد الأسئلة وأن أجئ إليه بعد أن يتناول إفطاره فى السابعة مساء فى «وادى الراحة».

ولا أحد يعرف بالضبط من الذى أطلق اسم «وادى الراحة» على هذه المسـاحة الكبيرة من الأرض بين الجبال.هل استراح فيها اليهود بعد خروجهم من مصر؟ هل اسـتراح فيها موسـى وقومه بعد أن كلمه الله وأنزل عليه وصاياه العشـر؟ أول دستور أخلاقى مكتوب على الحجر. أول دستور ضاق به صاحبه عندما وجد أهله يعبدون العجل الذهبى؛ فكسـر الأحجار على رؤسـهم! هل اسـتراح الناس لأنهم قد وجدوا سبيلين للحياة: سبيل الوصايا العشر – أى الطريقة الأخلاقية المثالية للحياة، وسبيل عبادة الذهب، أى الطريقة العملية بين الناس؟ .. هل اسـتراح اليهود إلى أنهم قد اهتدوا إلى سر الحياة الإنسانية: الذهب.. هو الإله وهو القوة والأمل وهو الحرب وهو الموت؟. هل استراح موسى عليه السـلام إلى أنه قد وقـف فى نهاية أنبياء بنى إسـرائيل الذين حاولوا وفشلوا، وقاتلوا وقتلوا؟ إن موسى لم يقتله اليهود، ولكن وفاته أقصـى من القتل.. لقد رأى الأرض الموعـودة ومات قبل أن يدخلها. دخلت هذه الأرض عينه وقلبه وعقله، ولكن لم تدخلها قدماه .. فكأنه وعدهـم بالأرض فدخلوها،ولم يدخلها هو؛ فكأنه مات ضحية الوعود الضخمة التى لم يقدر على تحقيقها.. وكأنهم عندما دخلوها، أحسـوا أنه كان فى استطاعتهم أن يفعلوا ذلك دون حاجة إلى نبى.. هل وادى

الراحــة اسمه الحقيقى: الوادى راحــة؟.. أى إن الراحة فى الوديان والعذاب فى الجبال.. أو أن الاســم هــو دعوة إلى كل مرهق تعبان أن يكــون له فى حياته واد.. أى إذا كانت الحياة جبالا وهضابا وبحارا وصحــارى وأنهــارا، فلا راحة إلا فى الــوادى.. فالوديان فى الأرض الخضــراء غــير الوديان فى الأرض الصفراء فالوادى الأخضر مســاحة من الأرض الخضراء هادئة وســاكنة.. مثل قريــة ميت أبو الكوم عند الرئيس السادات.. أو مثل هذه الهضبة المستوية.. إن الرئيس السادات فلاح.. ابن الحقل والشــجرة.. ابن المساحات الواسعة.. ابن الجدران المتباعدة والسقوف العالية.. ولذلك كانت أمتع جلساته فى الحديقة.. تحت الشــجر.. تحت السماء.. هل كانت الزنزانة هى أقسى وأقصى درجات العذاب؟ مــن المؤكد أنها كانت كذلك.. وكذلك كانت البدلة والكرافتــة والحذاء ذو الأربطة..فارتدى القمصــان المفتوحة والأحذية بلا أربطة والجلاليب.. وكان يشــجع الآخرين على لقائه كذلك.. إن البدلة زنزانة والجزمة المربوطة زنزانة والمكتب والبيت.. ولذلك اختار المســاحات الواسعة ليكون هادئا مسترخيا.. بل إنه كان حريصا على أن ينتقل بمقعده تحت الأشــجار من الشــمس إلى الظل.. أو من الظل إلى الشــمس.. وكان بعيدا عن التليفــون دائما وبعيدا عن الراديو أيضا فقد كان يعيب على ســلفه جمال عبد الناصر أنه كان حبيس المكتب والســرير، معلقا من أسلاك التليفون - تحترق أعصابه مثل سيجارته التى لا تنطفئ..

وكنت أداعب الرئيس السادات فأقول له: هناك نكتة يا سيادة الرئيس للشاعر الفارسي سعدى قال: سألونى يوما من الذى علمك الأدب؟ فأجبت تعلمته من رجل قليل الأدب كلما فعل شيئا امتنعت عنه..!

وقد لا حظت أن الرئيس لم يضحك لهذه النكتة. ومعه حق ربما كان معناها أن الفرق بينه وبين جمال عبد الناصر.. هو أنه يخالفه فقط وهذا موقف سلبى، ليست فيه إيجابية ولا إبداع فقد اختلف كثيرا جدا عن جمال عبد الناصر.. فجمال عبد الناصر كان يشعر أنه أكبر من مصر.. وأنها أقل كثيرا من طموحه ولذلك اتحد مع سوريا والعراق وليبيا والسودان واليمن.. ولو لم ينكسر فى حرب ٦٧ لطالب بتونس والجزائر والمغرب.. ولكن أنور السادات كان يشعر أن مصر كبيرة جدا إنه شرف عظيم أن يكتفى بها. فالقاهرة وحدها فى حجم سوريا ولبنان والأردن وكل دول الخليج.. ولذلك فجمال عبد الناصر قد جعل مصر واحدة من كيان طموح اسمه الجمهورية العربية المتحدة مع دول أخرى. ولكن أنور السادات أعاد للجمهورية العربية المتحدة اسمها التاريخى العظيم الذى ورد فى القرآن الكريم: مصر.. واهتزت القلوب والحناجر والأقلام لكلمة: مصر. وعندما ذهب الناس فى أحلامهم إلى أبعد من ذلك وطالبوا بعودة العلم المصرى الأخضر القديم ذى الهلال والنجوم، أوقف السادات هذا الاتجاه الذى لا ينتهى إلا بعودة الملكية وقضية الهلال والصليب.. فأعلن إننا سوف نحتفظ

بالعلم الذى عبرنا به القناة ووضعناه عاليا فوق حائط الهزيمة والهوان الذى اسمه: خط بارليف..

وقد فعل الرئيس السادات لمصر واسم مصر وشرف مصر ما لم يفعله كثيرون من زعمائها. فقد كانت حساسيته شديدة لكرامته وحريته وتأكيد ذاته.. أى بحثه عن الذات حتى يجدها. فإذا وجدها أكدها.. وتمنى ذلك لمصر ولكل شاب فى مصر: أن يبحثوا فى أنفسهم عن أنفسهم..فإذا عرفوها صانوها.. وإذا صانوها أكرموها.. وإذا أكرموها رفعوها وإذا رفعوها حاربوا من أجلها حتى يتحقق السلام مع النفس ومع أعدى الأعداء. وكذلك فعل أنور السادات. سألت الرئيس السادات؟ ما هو بالضبط المعنى الذى تريد أن تؤكده بذهابك إلى سيناء.. وإلى «وادى الراحة».

وكان يجيب: المعنى بسيط جدا.. أريد ألا ينسى المصريون أن هذه أرضهم. مع الأسف لم يشعر المصريون كثيرا بأن سيناء أرضهم إلا عندما احتلها اليهود. وإلا عندما حاربنا من أجل استعادتها. واليهود أنفسهم يقولون إن سيناء كانت فى أيديكم.. فلماذا لم ترصفوا شارعا أو تبنوا مدينة أو تحفروا بئرا؟! وأنا أوافقك على أن مصر ليست مكدسة بالسكان إنما السكان فيها موزعون توزيعا سيئا.. ربع سكان مصر فى القاهرة وحدها... ولذلك فالمصريون يجب أن ينتشروا فى بلادهم.. أن يملؤا سيناء.. وأن يرتبطوا بالأرض. فيشعر كل إنسان أنه عندما يحارب فهو يحارب عن أرض يملكها. تماما كما يحارب

عن ثوبه ومقعده وبيته وأسـرته.. هذا هو الانتماء الذى أريد أن أغرسه فى كل نفس.. هل تعرف سـر تمسكى بقرية ميت أبو الكوم؟ إن ميت أبو الكوم، كما رأيتها، قرية صغيرة. لا شـىء. لا معالم ولا ميزة لها. ولكنها قريتى. أرضى. أهلى.. ألم تسـخر أنـت من البيوت المواجهة لبيتى فى ميت أبو الكوم لأن الفلاحين ما يزالون يضعون روث البهائم على الأسطح؟!

وكان فى وسعى أن آمر بإزالة هذة المخلفات الحيوانية والبيوت.. تماما كما أسـتطيع أن آمر باختفـاء الميكروفونات المدوية الآن فى كل القرية.. ولكنى أرفض هذا الاستبداد.. هذا القهر.. هذا التزوير.. وأهم من ذلك: أرفض أن أقضى على حرية الفلاح فى أن يكون على راحته فـى بيته يفعل ما يشـاء.. وأهم من ذلك أن يشـعر أنـه لا فرق بينه وبينـى.. فأنا رئيس الدولة.. نعم.. لكـن رئيس الدولة لا يمنع من أن يشعر بكرامته وحريته وأنه فى بيته وبين أهله على النحو الذى يريد.. هـذه المعانى هى التى أحرص عليهـا: الانتماء للأرض والحرص على الأسـرة الصغيرة التى هى ينبوع الحرص على الأسرة الكبيرة التى هى مصر.. فأنا أريد أن يذكر الناس سيناء.. وألا يفكر أحد فى أنها منفى للمغضوب عليهم.. ولذلك فأنا حريص على أن يذهب إليها الشـبان.. وقبـل أن يذهبـوا يجب أن نوفر لهـم الحياة الكريمـة. وأن نعطيهم شـرف الريادة، وأن نكرم كفاحهم ونجاحهم. هذا هو المعنى البسـيط الـذى ألـف وأدور حوله. فاليهـود عندهم مسـاحات أضيق جدا من

نفس الرمال الجافة. ولكنهم أقاموا على هذه الأرض جناتهم الصغيرة. أقاموها بالإيمان وغرسوها بالعلم. ولذلك نقلت إلى سيناء «ميت أبوالكوم» الجديدة.. وليس ذلك تمجيدا لقرية ميت أبو الكوم.. ولكنه تكرار جديد للقرية المصرية المجهولة.. وبداية لقرى أخرى كثيرة..

□□□

وفى وادى الراحة أقيمت بيوت خشبية بسيطة واسترحات للزوار وكبار موظفى الدولة من الوزراء والمهندسين.. وزرعت الأشجار.. وأضيئت.. ثم نقلت إليها المياه.. وعلى جانب القرية الصغيرة جدا توجد استراحة الرئيس.. وهى أيضا صغيرة.. وطبيعى أن يكون أوسع مكان فيها ذلك الصالون ذا المقاعد الأربعة الذى يجلس فيه الرئيس وأمامه النوافذ قد انفتحت على وادى الراحة..

وكان الجو منعشا وباردا. وقد ارتديت ملابس ثقيلة. والليل هادىء.. وجبل موسى والجبال الأخرى أشباح رمادية: كأنها كانت فى كواكب أخرى توقفت فى وادى الراحة.. وذلك الضباب الذى يلفها كأنه كلمات بيضاء كالأمل..أو كأنه ذكريات موسى عليه السلام معلقة بين السماء والأرض.. أو كأنه الوصايا العشر تنزل من عند الله كل يوم وكل ساعة منذ كان موسى هنا.. وكأن الوحى لم ينقطع.. وكأن كلماته لا تتوقف. سواء كان هناك موسى أو لم يكن.. أو كأنه أرواح هائمة.. أو كأنه السموات الأرضية.. فهناك السموات وهناك السموات العلا التى يصعد إليها الكلام الطيب.. والسموات الدنيا التى يصعد

إليهـا الكلام الخبيث، ويظل هكذا عالقا بالأرض وبعيدا عن السـماء ..أو أن الضبـاب حقيقة علمية بسـيطة جدا. إنـه بخار الماء تصاعد مـن الأرض، فلما ارتفع اصطدم بدرجة حـرارة منخفضة فتحول إلى ضباب.. وإذا انخفضت الحرارة أكثر تحول إلى ندى.. وإذا انخفضت أكثـر تحول إلى مطر أو إلى سـيول.. إن الذى تـراه رقيقا عاليا ليس إلا بخار الماء يتردد بين أن يظل بخارا أو يعود الى أصله ماء يسقط على وادى الراحة فيشـعل الحياة فى البذور الجافة والأعشاب.. وليست أرض الـوادى إلا كفا أو راحة يد ممـدودة تباعدت أصابعها، وتنتظر رحمة السـماء بالأرض.. وما رحمة السـماء إلا المـاء. فهل هو وادى الراحـة: لأن الجبال والبخار والأرض قد اهتدت إلى هذا الاتفاق فيما بينها واستراحت إلى ذلك...

□□□

ثم جاء من يقول لنا: سـيادة الرئيس يريدك أنت والمهندس حسب الله الكفراوى بعد نصف ساعة..

وكنا قد جلسنا مع اثنين من الصحفيين الأجانب.. أحدهما نمساوى والآخر ألمانى. جاءا ليؤلفا كتابا عن حياة الرئيس السـادات..ربما كان ذلـك هو الكتاب المائة فى ثلاثين لغـة.. وكان الجو روحانيا.. وكان الكلام عن الأرواح والأشـباح والملائكة والشياطين والحياة بعد الموت.. وربما كانت السـيدة جيهان السـادات، صغرى كريمات الرئيس هى التى لوحت بهـذه المعانى.. واحتدم النقاش بين سـكرتيرى الرئيس

وبينى وبين المراسلين الأجانب ولم يكن من الضرورى أن نهتدى إلى شئ فلا شئ نهائى فى قضية تبدأ: بما هى الروح؟ والله سبحانه وتعالى قد قال ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ (سورة الإسراء: ٨٥)

ولم أكن حريصا على شرح نظريتى فى هذة القضية. فقد أشفقت على كريمة الرئيس. فهى صغيرة رقيقة شديدة الحساسية. وهى لا تقوى على مثل هذه الخوارق المخيفة التى لا داعى لأن أرويها فى هذه الليلة الهادئة الساكنة الحانية الصوفية النورانية..

ومن بعيد جاء صوت القارئ الطبيب د. نعينع.. إنه صاحب أداء جميل مثقف. وجاء صوته يتردد فى جوانب وادى الراحة.. كأنه يتنزل علينا من السماء كلمة كلمة.. وكأن جبريل بدلا من أن يحمله إلينا كلاما أو نورا فإنه يلحنه فيجئ غنائيا ساحرا..

وكان القارئ يقرأ قصة موسى وهارون وفرعون..

يقول الله: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾ (سورة طه: ١٧)

قال: ﴿ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾.. (سورة طه: ١٨)

قال ﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾

يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾﴾.. (سورة طه: ١٨ - ٣٢)

ويتعالى صوت القارئ إلى قمم الجبال ويشق ستائر الضباب وهو يقول: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾﴾ .. (طه: ٣٥ - ٤١).

ويعود القارئ نعينع لينتقل إلى سورة أخرى فيقرأ من سورة الأنبياء، ويبلغ قمة الأداء والجمال حين يتلو: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾..(سورة الأنبياء: ٧٦)

وعندما يتلو: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾.. (سورة الأنبياء: ٨٧ - ٨٨)

الله على كلام الله .. الله على هذا الكلام وهذا الأداء وهذا الصوت والصدى والنور والظلال، والجبال ووادى الراحة.. الله فى كل مكان.. ولعل المعنى الذى أقصده من وادى الراحة أن يجد الإنسان هذا

الشـفاء لنفسه ومن نفسه وغيره.. هل الذى أشعر به هو الراحة؟ نعم.. هل هـى الراحة الأبديـة..؟ لا.. إنما الراحة الأبدية يبلغها الإنسـان عندما لا يكون جسـدا. فما دام هناك جسد فكل شئ مؤقت ..كل شئ له شـهادة ميلاد وله تصريح دفن.. ولكن عندما يسـقط هذا الجسـد. .الـذى هو ثوب الروح، تكون الراحة الأبديـة،لأن الروح أبدية.. لأن الروح من الله كما أن الأشعة من الشمس.. والفكر من عقل الله والإيمان مـن هدى الله.. فـكأن وادى الراحة ليس إلا عتبة واسـعة أمام باب الجنة..

وليس هذا هو حال الذين يعيشون فى وادى الرحة.. إنهم لا يجدونه واديـا، إنما يجدونه صحراء قاحلـة جافة... إنه «وأد» الراحة ولكنه راحة لمن يجئ مـن بعيد.. يجئ بعض الوقت ليتزود بالمعانى والأمل والتوبـة ويعاود الحياة بعيدا.. فهو – إذن – وادى الراحة المؤقتة من التعـب الطويل.. فاليهود عندمـا جاءوا إليه كان الخروج من مصر قد أرهقهم فجاءوا هنا ينشـدون جوار الله ما افتقدوه إلى جانب فرعون.. ولـن ولم يذهب فرعون... فكل فكرة تتسـلط علينا هى فرعون.. وكل عـذاب يقهرنـا هو فرعـون.. فلا هـرب من فرعون النفس والجسـد والعقل، إلا بالبحث عن أحد الوديان فى أى مكان..

وجاء موعدنا مع الرئيس السادات. دخلنا فوجدنا الرئيس بالبيجامة والشبشـب، جلس فى أحد الأركان. وكان المكان مفزعا حقا. فالألوان زرقاء والإضاءة فلوروسنت. إنها ليست غرفة تطل على وادى الراحة..

إنها مثل غرفة عمليات يستطيع الإنسان أن يرى فيها جسمه وشعيرات كفه.. ولكـن الرئيس خفيض الصوت. هادئ الملامـح. وتكلم هو طبعا. وحدثنـا عن معنى مجيئه إلى هذا المكان ومعانى وادى الراحة. والراحة نفسـها. وعن آماله فى أن يقام مجمع الأديان تتجاور فيه المعابد وقلوب النـاس. ولتكون المسـافة بينهم أصغر. بين المعابـد وبين الناس.. فكل حـروب التاريخ لها مـذاق دينـى. أى أن الذين يموتون فى سـبيلها. إنما يموتون فى سبيل الله. فيتقاتل الناس من كل الأديان.

أما طموحه العظيم فهو ألا تكون حرب بعد حرب أكتوبر. إن هذا أمل لا تقوى عليه البشرية. ولكنه أمله.. فإن لم يكن له فضل فى تحقيقه. فلا أقل من أن يؤمن به .. وجاءت أكواب الشاى.. فالرئيس يشرب شايا كثيرا. ومع الشـاى يدخن البايب بسـكين صغير. وهذا السكين يتلوث عادة. أما الذى يفعله الرئيس فهو أن يمسـح السـكين فى الأرض. وقد تكون أرضا خشـبيا أو سـجادة عجمية. وقد فعل ذلك وهو يضحك؟ أنا فلاح مفيش فايدة.. فلاح!

ولم أجـرؤ أن أقول للرئيس: إن هذه الأضواء بأحرة موجعة للعين .. تبدد الهدوء وتحول وادى الراحة إلى ميدان الشهداء.. لم أجرؤ.. ولو قلت فلا شئ يمكن عمله فلا يمكن تغيير هذه الأضواء.. وربما كان الرئيس هو الذى طلبها. ومن المؤكد أنه فعل ذلك. لأن له رأيا فى كل شئ فهو الذى اختار اللون والمقاعد.. واختار شكل المقاعد ومكانها وحجمها. لاشك فى ذلـك. ولم أجرؤ أن اعترض على الشـاى. فأنا لا أشـربه ليلا خوفا من الأرق. ولكنى شربت مرة وثانية وثالثة.. وربما عاشرة..

ولم يكـن الرئيس حريصا على أن يتحدث طول الوقت.. فانتهزت أقرب فرصة. وتحولت بالحديث إلى جهة أخرى تماما، قلت: سيادة الرئيس ما هي الشجاعة؟

فتوقف لحظة، ثم أدرك بذكائه اللماح أنني أريد أن أغير الموضوع وأن أدخل في حوار.. أو حديث فقال: أن تقول الحق ولو على نفسك.

فقلت: ما هو الصبر؟

قال: أن تتحمل ما يحدث بعد ذلك دون شكوى.

قلت ما هو الحب؟

قـال: هو الراحة التي تحسـها مع الناس وبعـد أن يذهب الناس وعندما تتذكر ذلك.. وعندما تنام..

قلت: ما هو القرار؟

قال أن ترى ما سوف يحدث قبل أن يحدث.

قلت: لعلك تقصد قرار المبادرة بالسلام؟

قال: نعم.. لقد رأيت عبر عشـرات السـنين ما يمكن أن يحدث. فأقدمت عليه.. واندهش الناس لذلك. ولا يزالون في دهشة..

قلت: ما الذي تقصد عندما تقول عن نفسـك أنك لست تقليديا في أفكارك وقرارك؟

قال: قرار الحرب وقرار السـلام وقرار إخـراج الروس وقرار تصفية مراكـز القوى.. كلها غير تقليديـة.. فالحرب لم يكن هناك أحد يجرؤ علـى اتخاذ قرار بشـأنها خوفا مـن الهزيمة المتكررة.. وقرار السـلام

لم يجـرؤ أحد على أن يحقق السـلام مع إسـرائيل.. ولكن قرارى غير تقليدى.. جديد.. رائع مروع..

قلت: ما هو الوطن؟

قال: أن يشعر كل إنسان أن قريته مثل ميت أبو الكوم بالنسبة لى. وأن كل ذرة رمـل هى الوطن.. وكل قطرة دم هى الكرامة.. وكل موت هو استشهاد..

قلـت: لا تؤاخذنـى يا سـيادة الرئيس إذا قلت لـك هل تنبأ لك أحد كم سـنة سوف تعيشها؟.. إنه سؤال غريب.. ولكنه سؤال.. وأنا شـخصيا قد تنبأ لى عالم كف فى «هونج كونج» أننى سـوف أموت فى سـنة ١٩٦١.. ونسـيت ذلك..ولكن صديقا له نفـس اسمى هو الذى توفى.. ولعل نبوءته قد صدقت.. فقد فصلت من رئاسـة تحرير «مجلة الجيـل» ومن التدريس فى الجامعة فى ذلك العام.. فلعل ذلك نوع من الموت الأدبى.. ألم تعط كفك لأحد؟

قال: أنت قلت لى فى أسـوان إن زوجة حاييم هرتزوج تزور مدير المخابرات الإسـرائيلى الذى جاءنى معـك، كانت تريد أن تقرأ كفى. وهى قد قرأت كف عدد من زعماء العالم.. وتقول إنها قرأت لك كفك.. ولـو عرفت جيهان بوجودها لأعطتهـا كفها فهى تحب ذلك، كمعظم السـيدات.. ولكن لا أحب أن يقلقنى أحد على مسـتقبلى.. ثم إننى لاأصدق ذلك.. فالأعمـار بيد الله.. وقد أموت الآن، وتقع فى ورطة.. ما الذى تفعله بى؟..

وانزعجنا لهذا الذى يقوله. فقلت: آسف لهذا السؤال السخيف.. سيادة الرئيس.. ولكن أحد المنجمين المكسيك قد تنبأ لكل الذين حولك.. ولم يشأ أن يقول نبؤته لك.. ولما سألوه قال: إلا هذا الرجل لأننى أحبه. وقال الرئيس: آه..إذن فاسأل هذا الرجل.. هل هو يحبنى ولذلك يريدنى أن أموت بسرعة. لأستريح من وجع القلب.. أو هو يحبنى فيتوقع أن أعيش طويلا؟ عليك أن تسأله أنت.. هل تعرف أننى فى بعض الأحيان أشعر كأننى عشت أطول مما يجب.. وأن من الواجب أن أستريح. وأحيانا أشعر أننى مهما عشت فإننى لن أستطيع أن أحقق كل ما أريد لمصر.. ولكن صدقنى.. إذا مت الآن وفى هذه اللحظة وفى هذا المكان فسوف أكون مستريح الضمير.. فقد أعطانى ربى أكثر مما أستحق.. وأكثر مما كنت أحلم..

قلت: سيادة الرئيس هل بقيت عندك أحلام لم تحققها؟

أجاب: شخصيا.. لا شىء.. أما لمصر فلا يزال عندى الكثير. فنحن الآن نمشى فى الطريق الصحيح..

قلت: سيادة الرئيس إننى ألاحظ أن أولادك. وخصوصا جمال ليست له أية اهتمامات سياسية.. ألا تحب أن يكون له نشاط سياسى.. أو يكون مشتغلا بالسياسة أو الحياة العامة..؟

أجاب بسرعة رافضة: أحمد الله على ذلك.. وأنا قد أوصيت زوجتى جيهان بألا يشتغل أحد من أولادى بالسياسة.. فقد تعذبت كثيرا. وأعتقد أن اشتغاله بالسياسة مستحيل لأنه من جيل مختلف ونشأ فى ظروف

مختلفة.. إنه أحسن حالا.. لا.. لا أحب لابنى أن يعمل فى السياسة.. فمجال العمل و النجاح واسع.. فلماذا السياسة بالذات ؟

أما المهندس حسب الله الكفراوى فقد أسعد الرئيس كثيرا عن مشاريع التعمير و الإسكان و المدن الجديدة .. وكان حديث الكفراوى مكافأة نفسية رائعة بعد المشقة فى الحوار والنقاش فى قضايا السياسة والدين والتاريخ.. و انتصف الليل.. و استأذنت من الرئيس. وكأنه كان يتوقع ذلك.. فقال الآن سوف أقرأ سورتى طه والأنبياء بعد ذلك أنام.. تصبحوا على خير..

– وأنت من أهل الخير ياسيادة الرئيس..

تمشينا بعض الوقت فى وادى الراحة.. ومن بعيد جاءت سيارة والتف مصباحها حول أحد الاحجار . فبدا كأنه تمثال لفتاة جميلة. واندهشت.. ما الذى أتى بهذة الفتاة فى هذا الوادى المقدس؟!.

ثم تنبهت إلى أن الذى أقوله لنفسى هو مجرد وهم. وهذا الوهم يدل على أننى لم أتجرد تماما من آدميتى .. من جسمى.. من أحاسيسى المادية التى هى إهانة لى ولكل النورانيات فى الأرض والهواء والسحاب والجبال..

ورحت أهمهم. فسألنى الصديق حسب الله الكفراوى : ماذا تقول؟.. الوحى نزل عليك.. هاها.. هاها..

قلت شىء غريب لا تصدقه.. ولا علاقة له بما قلنا وما سمعنا وما حولنا.. إنما له علاقة بقضية معلقة فى رأسى من ثلاثين عاما.. فقد

حفظت نصف بيت من الشعر لبلدياتى الشاعر على محمود طه. وصف فيه تمثالا عاريا. مرفوع الصدر. أما الآن فإننى أتذكر هذا البيت وغيره من الأبيات فى هذه القصيدة.. الآن فقط ولأول مرة منذ كنت طالبا صغيرا.

ورويت قصيدة فى الغزل..

ويبدو أن المهندس الكفراوى لم يستحسن هذا الشعر.. أو الانحراف بالخيال و السمو الروحى. إلى هذا المنحدر الحسى المادى اللعين.. واعتذرت له عن ذلك..

ولم يأت النوم بسرعة كما توقعت، فالهواء المنعش قد أراح الجسد. فلم أعد فى حاجة إلى راحة.. ولكنى نمت، وعندما صحوت لم أجد رغبة فى أن أقرأ أو أكتب، ونزلت ورحت أتمشى فى وادى الراحة قبل أن تطلع الشمس وقبل أن يصحوا الناس، وقبل أن تنفض الجبال عنها الغلالات الفضية من الضباب.. أو من الأفكار أو الأوهام أو الهموم..

□□□

استرجعت هذه السطور من «مذكرتى» ورحت أنعشها فى رأسى لعلى أريد أن أراها أمامى مرة أخرى..

ولما اتصلت بى سكرتارية الرئيس السادات يومى الأحد و الاثنين يؤكدون أن الرئيس يريدنى أن أذهب معه إلى وادى الراحة، أسعدنى ذلك، وتمنيت أن تكون سهرتى مع الرئيس أمتع و أروع.. ولابد أن أنتهز الفرصة لكى أعرض عليه مشروعات كتب جديدة.. أو أسأله عن رأيه فى سلسة «صالون العقاد».

وقد تفضل الرئيس السادات فسجل بصوته تعليقا أدبيا فنيا على أكثر من عشرين حلقة. وقد أسمعت هذه التسجيلات عددا من الأدباء د.لويس عوض، وقد أذهله فهم الرئيس السادات لمثل هذه القضايا الأدبية والفلسفية..

وكان الرئيس قد قرأ الحلقتين الأخيرتين عن وفاة العقاد فقال لى: يا أخى وجعت قلبى.. إنك لم تصف العقاد كيف يموت. إنك قتلته وقتلتنا معه.. ياساتر.. أعوذ بالله.. لقد كان الوصف رائعا مروعا.. إنها صنعة.. منتهى الصنعة الأدبية.. و أعترف لك: إننى لم أكن أعرف شيئا عن الصالونات الأدبية، رغم أننى كنت معاصرا لها، إلا بعد ما قرأت لك هذا الذى كتبت.

وتحدثت إلى الرئيس فى التليفون ثلاث مرات يوم الاثنين. وفى كل مرة يسألنى؟

فأقول: طبعا!

ويقول هو؟ .. إذن فسوف يكون عندنا وقت طويل للمناقشة والحوار..

- شكرا ياسيادة الرئيس..

وفى أحد الأيام بعث المهندس حسب الله الكفراوى بمن يطلب اللوحات التى رسمت لمجمع الأديان.. فأدركت أنه سيذهب إلى وادى الراحة، وأن نلتقى مرة أخرى..

وذهب خيالى بعيدا. وسجلت على الورق أسئلة كثيرة وقضايا عديدة.. وقررت أن أسأل الرئيس عن أشياء يجرؤ الأجانب على مناقشتها ولكن أحدا منا لا يفعل ذلك..

وأمام التليفزيون جلست أتفرج على العرض العسكرى الذى توقف وانقطع. ولم أجد الذى أقوله ردا على أسئلة التليفونات. وعرفت.. وذهبت إلى مستشفى المعادى. ووجدت السيد حسنى مبارك نائب رئيس الجمهورية ومعه سكرتيره يطلب له أرقاما. ومعه نائب رئيس الوزراء نبوى إسماعيل.. وجاء السيد كمال على نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية..

سألت السيد حسنى مبارك عن نوعية الذين أطلقوا الرصاص على الرئيس.. فأجاب لم تحدد بعد..

وهمس السيد نبوى إسماعيل فى أذنى قائلا: إن الأطباء يفعلون المستحيل! ثم ارتكبت أكبر غلطة فى حياتى: فقد تسللت إلى غرفة العمليات ورأيت الرئيس.. رأيت ما أعجز عن وصفه. وأطلب من الله أن يعجزنى عن وصف ذلك.. وأن يهبنى القدرة الهائلة على نسيانه!

ثم لقيت د. محمد عطية طبيب الرئيس وقد خرج من غرفة العمليات فقال: لا أمل..ورأيت د. أمين عفيفى زوج ابنة الرئيس ولم يجب. ثم وجدته قد أسند رأسه إلى الحائط وراح يدقه ويبكى..

وأما السيد ممدوح سالم مساعد الرئيس فقد جلس إلى جوار أسرة الرئيس وراح يبكى بحرارة وانهيار...

أما السيدة جيهان السادات فقد كانت أشد تماسكا. وقد انهارت إلى جوارها د.زينب السبكى والسيدة قدرية صادق.

أما السيدة جيهان أنور السادات فقد جلست على مقعد أمام غرفة العمليات فى ذهول. لا تكلم أحدا ولا يكلمها أحد.. ولم يفلح أحد فى أن يحركها من مكانها..

أما سكرتارية الرئيس وحرسه فقد ظهر عليهم الإعياء والإرهاق، والعيون دموية.. والملابس أيضا..!

قال لى د.مصطفى المنيلاوى: لقد جاء ميتا إلى مستشفى المعادى..!

ونزلت السلالم على قدمى. و الملابس البيضاء تروح وتجئ بأطباء وممرضات، لقد اعتادوا على رؤية الحزن والدموع والبكاء.. و أصبح ذلك من معالم الحياة فى المستشفيات.. تماما كما تذهب إلى معهد الموسيقى فتسمع أنغاما وأصواتا وضبطا للآلات الموسيقية.. إنه جزء من الديكور اليومى للمرضى والأطباء.. وعلى سلم مستشفى المعادى وجدت عجبا..

لقد وجدت من يحمل البوت الأسود الطويل.. والبنطلون.. وقد تدلت من ذراعيه.. كأنها مشنوقة..

إنها بعض ملابس الرئيس أنور السادات..!!

إننى لا أنسى يوما جاء فيه الترزى إلى الرئيس يعرض عليه ملابس جديدة تحت الأشجار فى القناطر الخيرية.. ولم يكد يمر الترزى يحمل شماعة عليها هذه الملابس حتى وجدت أحد الحراس – لا شعوريا – قد اعتدل واقفا! سبحان الله.. ما أعظم حكمتك وما أقساها أيضا..

وقد لا يتبقى من الرئيس السادات شيء من ملابسه.. ولكن هو الذى سوف يبقى فكرا وقيما ومثلا عليا رفيعة.. إن حياة الرئيس نفسها نموذج للقوة و الرحمة والإرادة والنجاح والبصيرة و الإبداع.. إن الرئيس السادات ليس إلا واحدا من الذين طالبوا بنزع السلاح وتحويله إلى هدنة إلى صلح وإلى سلام دائم. وككل رسل السلام يموتون بالحديد والنار..

وفى ذلك دليل على أن هناك من لا يريد السلام.. ولكن توالى دعاة السلام يؤكد معنى آخر، هو أن هناك أغلبية ساحقة تريد السلام، وأن هناك أفرادا ناهبين يحرصون على ذلك حتى الموت.. هل أخطأ الرئيس السادات فى الحساب؟!، فقد عرض رأسه وصدره للملايين فى الشوارع، فلم يصبه أحد بسوء.. فانتقل فى استنتاجه إلى أنه إذا كانت الشوارع المفتوحة لم تمسسه بسوء. فهل معقول أن يموت وسط جيشه الذى انتصر به ونصره والذى اعتز به وأعزه ؟!.. إن منطقة الجيش هى منطقة «منزوعة السلاح» ...

فذهب وتعرض وجلس ووقف سعيدا مزهوا.. ولكن واحدا من الأشرار مكلف بواجب واحد هو تنفيذ حكم الإعدام على رجل السلام!.. فهل أخطأ الرئيس؟ .. أو هل أصاب القدر؟!

وهل صحيح أنهم أرادوه وحده، أو أنهم كانوا يريدون كثيرين، ولكن الرصاص قد نفد؟.

وكأن الرئيس لم يصدق ما حدث بسرعة، فتلقى الرصاص ووقف يرى إن كان صحيحا ما حدث، وكان الرصاص أسرع. فلم ير الرئيس

مـا حدث ومات وهو لا يعـرف إن كان قد مات.. ولا أحد يصدق أنه قد مات..

إن ملايـين مـن المصريين قد أسـلمتهم الحـيرة إلى الذهول. وجاء الذهول فحبس دموعهـم وصرخاتهم. و العالم من حولنا يصلى ويبكى ويعزينا ويواسينا. ولا يفهم بالضبط ماذا حدث فى مصر..

إن الذيـن وقفوا بالملايين فى شـوارع المنصـورة لتحيته، بكوا بعمق وأسـى فلم يخطر ببالهم أنهم خرجوا لتحيته لآخر مرة، ولم يستمتعوا بامتنان الرئيس لهم وقتا طويلا.. إنهم يشعرون كأنهم قتلوه بالفرحة.. وأن الأيـدى التى صفقـت للرئيس فى ذلك اليوم، قـد انتقلت إلى لطم الخـدود على فقيد مصر الغالى، على فقيد العروبة التى سـوف تعرف متأخرا جدا ما الذى فعله من أجلها.. وعلى فقيد السلام الذى لم يكمله بين الطوائف وبين مصر والعرب..

إن الرئيـس السـادات قد وعد فأخلف هذه المـرة. لقد وعدنى بأن أرافقـه إلى وادى الراحـة.. ولكنه ذهب وحـده إلى الراحة، ولكن عن طريق آخر..

ولم يشأ أن يذهب إلى وادى الراحة بلا جنازة رسمية.. فانطلقت له المدافع وانتقل بالطائرة إلى المستشـفى.. إنه لم يشعر أنه ركب أو هناك طائرة أو مستشفى..

□□□

ولا أدعـى أننى كتبت أو قلـت، إنما أحاول أن أجعل للذى أقوله معنى، وأن يكون هذا المعنى هو الحزن الذى لا قرار له..

وإذا كان النـاس قد أصيبوا بالذهـول فإن الذى أصابنى هو الذهول و الهذيـان.. وإذا كنت لم أمش فى جنازته بعد. فقد أقمت جنازة من الكلمات والمعانى والنقط السوداء كأنها دموع مبعثرة..

إنهـا محاولة يائسـة: فأنا أريد أن أبعد عنـه لأراه أوضح.. ولكن لا أسـتطيع، فأنا قد التصقت عينى به فلـم أعد أراه بوضوح.. بل إن الرئيـس السـادات لم يكن بعيدا عن العين. إنما هـو العين التى نرى بهـا، و اليد التى تبنـى، و القلب الذى يخفق، و العقل الذى يدبر.. و الأمل الذى ضاع..

والله قادر على كل شـىء. فكما وهبنا السادات فسوف يجود علينا بمن يخلفه فيعوضنا عن غيابه، ويقوم بإحيائه فى نفوسنا وعلى أرضنا: كرامة وسلامة !!

□□□